۱۶۵۳۹

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ذی القعده ۱۳۹۹
شماره	۹ سال ۵۱
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	عبدالغنی الراجحی
تعداد صفحات	۲۱۸۵-۲۱۷۸
موضوع	قضایا قرآنیة
سرفصلها	تصویر قرآنی
کیفیّت	
ملاحظات	

١٦٥٣٩

قضايا قرآنية

للدكتور عبد الغنى الراجحى

أحب أن أقرر قاعدة قرآنية تفسيرية أجمع على صحتها كل الدارسين والمفسرين والمشتغلين بالقضايا القرآنية • تتلخص هذه القاعدة فى أن الأقوال التى حكاها القرآن عن السابقين من الأنبياء والمرسلين وغيرهم لم تكن حين صدورها منهم باللغة العربية والألفاظ العربية ، وانما كانت بلغات أخرى تختلف من عهد آدم الى نوح الى ابراهيم الى موسى الى عيسى • فالقرآن حين يقص قصص هؤلاء ويحكى عنهم أقوالهم انما يحكيها بالمعنى كترجمة معنوية الى اللغة العربية ضرورة أنها كانت بالألفاظ غير العربية فحكاها القرآن بالألفاظ العربية والأساليب العربية لأن المقصود هو ذكر المعانى دون التقيد بخصوص الألفاظ •

والقرآن كما وصف نفسه فى أكثر من موضع عربى مبين وبلسان عربى مبين • والقرآن فى هذا الصنيع لا يكون كاذبا ولا متقولا على من حكى عنهم أقوالهم غير العربية بلغة عربية ولسان عربى مبين لأن المقصود حكاية المعانى ولأن القرآن قد كسا هذه المعانى وهذه الحكايات أثوابا براقة من الاعجاز والبلاغة والفصاحة لا يستطيع التأتى لها من حكيت عنهم هذه المحكيات من الأقوال • ضرورة أنهم كانوا عن مستوى الاعجاز القرآنى والبلاغة القرآنية بمعزل حتى ولو كانوا قد نطقوا بالعربية فما بالنا وهم لم يعرفوا أصل العربية والله تعالى يقول فى محكم كتابه « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » سورة ابراهيم • فاذا ما قال القرآن أن

عيسى فى المهد قال لليهود كما حكت قصته فى سورة مريم « انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » فانه يكون لم ينطق بحرف واحد من هذه الحروف ولا بفعل من هذه الأفعال ماضيا كان أو مضارعا أو أمرا وانما ذلك كله عمل الأساليب العربية والبلاغة العربية التى تقرر هى الأخرى قواعد يتفق عليها جميع علماء الملة والدين من البلاغيين والمفسرين وغيرهم ، ومن هذه القواعد أن الشىء المستقبل قد يعبر عنه بالفعل الماضى الدال على الحصول بالفعل ، لأن المضارع المستقبل اذا كان متحقق الوقوع لا سيما اذا كان من أفعال الله كان كأنه قد وقع بالفعل وصار أمراً حاصلا فيسوغ التعبير عنه بالفعل الماضى نظرا لتحقق وقوعه ، فينزل تحقق وقوعه فى المستقبل منزلة وقوعه فعلا ، كما كان الأمر عليه فى قوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » أول سورة النحل ، وأمر الله هو البعث والقيامة وهو عند نزول هذه الآية لم يكن قد حصل ، لكنه عبر عنه بالماضى نظرا لتحقق وقوعه ، كما أنه قد يعبر عن الماضى بالمضارع استحضارا للحال الماضية وعلماء البلاغة يذكرون لذلك أمثلة وشواهد تستعصى على الحصر (١) .. وهكذا ساغ للقرآن أن يحكى عن عيسى أنه قال بصيغة الماضى عن ربه أنه آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا والبر بوالدته ثم ان عيسى قبل أن يولد برسالاته وآياته وبركاته وكل ما يتعلق به كان أمرا مقضيا فى علم الغيب فيما قضاه الله وكتبه كما قالت الملائكة لمريم لما تعجبت مريم وقالت « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا » فردت عليها الملائكة قائلة لها : « كذلك قالَ ربك هو علىّ هين

(١) لايجوز ان يفسر القرآن من لم يتبحر فى علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع)

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » سورة مريم ، فيجوز أن يكون الايتاء والجعل والوصية بالصلاة والزكاة كل ذلك ماضيا باعتبار انه المكتوب المقدر لعيسى والذى سيكون مستقبلا عندما يكون نبيا رسولا فى عمر الثلاثين ، وكان ذلك إيذانا واعلاما وانذارا لليهود من عيسى فى مهده بأن الأمر سوف يكون كذلك وأنه تم قضاؤه فكأنما تم هو نفسه لا سيما وأن هذا الاشعار لليهود من عيسى يعتبر كالقضية التى تحمل معها دليل صدقها فهو كلام من وليد فى مهده بالرسالات والنبوات لا يكون الا من جهة الله تعالى .

هكذا يستقيم المعنى ويتبين المراد دون اللجوء الى ما قاله الأستاذ مصطفى محمود من أن الآية تدل على أن عيسى كان له وجود قبل هذا الوجود آتاه الله فيه الكتاب وجعله نبيا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا . كأنما كان اليهود على علم سابق ومعرفة بهذا الوجود والالتقاء بعيسى فيه حتى يحدثهم عما عرفوه واعترفوا به . نعم ما الفائدة فى تحديثهم عن شىء لم يعرفوه ولم يكلفوه ولم يشعروا به اطلاقا ..؟ ثم كيف كان هذا الوجود السابق مشحونا بكل هذه الأمور : الكتاب والنبوة والصلاة والزكاة والبر بالوالدة ؟! هل كان الوجود السابق على نمط هذا الوجود حتى فى الكفر والايمان والكتب السماوية والصلاة والزكاة والوالدة وبرها وجميع ما جاءت به الشرائع السماوية ؟ ولم اذن لا يكون هذا الوجود السابق هو الآخر مسبوقا بوجود سابق عليه حتى يتسلسل الأمر أو يدور وتصير قصة الوجود حلقة مفرغة لا يدرى لها أول من آخر ؟ ثم ما الفائدة من هذا الوجود السابق اذا كان التكليف والحساب والتقييم والديانات والرسل والكتب السماوية وعلاقة الانسانية بخالقها انما هو كله فى هذا الوجود الذى نعيشه ونعاينه ونعانيه . هذا الوجود الذى هو الوجود على الحقيقة وهو بيت القصيد ومربط الفرس ودار التكليف وأرض

الخلافة الانسانية ومناط الثواب والعقاب ومقدمة الدار الآخرة والدنيا مزرعة الآخرة والآخرة حصاد الدنيا ولا تعرف الانسانية حتى اليوم وجودا قبل هذا الوجود أو تسمع عنه الا من شطحات فلسفية كشطحة أفلاطون فى قوله بنظرية المثل التى لم يستطع أحد أن يقنع بها أحدا .

لقد كان غريبا وعجيبا من الدكتور مصطفى محمود وهو يرد على الدكتور النمر فيقول له فى أهرام ٧٩/٨/٢١ « ألم يقل عيسى وهو فى المهد انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » سورة مريم متى آتاه الله الكتاب وجعله نبيا مباركا ومتى أوصاه وهو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد . ثم يقول هذا كلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق سبق ، والمتكلم هو عيسى من البشر فاذا قال بالماضى فهو ماض لا شك فيه ، واذا قال ان الله أوصانى فان المعنى المباشر والبسيط يجب أن يفهم منه أنه أوصاه فى الماضى قبل مولده وآتاه الكتاب فى الماضى قبل مولده ثم يختم كلامه بقوله هذا هو مدلول اللفظ العربى ونحن لا نتجنى على الألفاظ ولا نلويها عن مدلولاتها كما يقول الدكتور النمر ، ونسى الدكتور مصطفى أو تناسى أن مدلولات الألفاظ ووجوه الدلالة تتعدد وتختلف بين الحقيقة والمجاز وبين مقتضى الظاهر والخروج عن مقتضى الظاهر وبين المعنى المقبول الذى تقره الشواهد والقواعد الدينية واللغوية والمعنى الغريب الشاذ الذى لا تعززه الشواهد . وهذه أمور تلتبس على كثير من الناس فى تفسير آيات القرآن الكريم فيخطئون مدعين أنهم على حق وأنهم أحرار فى فهم القرآن ما داموا متمسكين بمدلولات الألفاظ . وان النظر فى القرآن وتدبره على أى شكل كان عبادة مأمور بها ، والباطنية وبعض الصوفية والاشاريون والمغالطون فى فهم نصوص القرآن أكثر بضاعتهم من هذا القبيل ويؤكدون أنهم يتدبرون القرآن وأنهم خشع

ركوع حول نصوصه . كما يقول الدكتور مصطفى محمود تماما .

ومما يدل دلالة واضحة على أن الماضى فى قول عيسى آتانى الكتاب وجعلنى نبيا لا يراد به الماضى فى وجود قبل هذا الوجود بل يراد به الماضى فى سابق علم الله وتقديره أو يراد به المضارع المستقبل ، المؤكد حصوله أن هذا المعنى نفسه جاء فى سورة آل عمران بصريح المضارع المستقبل ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ويحمل بعضه على بعض وذلك حينما تحدثت السورة عن أن مريم لما بشرتها الملائكة بعيسى تعجبت وقالت « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر » فردت الملائكة قائلة لها « كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » ثم قالت لها : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » هكذا بصيغة المضارع المستقبل ، ثم تممت الملائكة حديثها فقالت « ورسولا الى بنى اسرائيل » والتقدير ويرسله أو يجعله رسولا الى بنى اسرائيل ، يقول لهم : « انى جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وابرىء الأكمه والأبرص واحيى الموتى باذن الله » .. الى أن قال : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة » الى أن يقول لهم : « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » الى أن ذكرت الآيات أنهم كفروا فقالت « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله .. » الآيات . فلما كان هذا كنه فى هذا الوجود لا يختلف فى ذلك اثنان وجب حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورة آل عمران بجعل ايتاء الكتاب والنبوة والرسالة وسائر مقولاتها وأحوالها كلها كائنة فى هذا الوجود عند بعثه الى بنى اسرائيل .

ويتكرر المعنى نفسه مرة ثالثة فى سورة المائدة بأسلوب قوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا . واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ

فيها فيكون طيرا باذنى • وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى • واذ تخرج الموتى باذنى • واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » فتعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل جاء فى ركب ورتل طويل من الأمور التى وقعت فى هذا الوجود بين عيسى وأمه وقومه ومعجزاته المسرودة المعددة من المهد والطين والطير والأكمه والأبرص واحياء الموتى وكف الله لبنى اسرائيل عنه لما كفروا فكذلك تعليم الكتاب وايتاء الكتاب يجب أن يكون منظوما فى خيط واحد مع هذه الأمور وواحدا فى ركبها وكلها فى هذا الوجود ، لا فى وجود قبل هذا الوجود هل من المعقول أن يذكر الله رسوله بشىء فى وجود لا يعرفه ويستحيل أن يتذكر شيئا فيه؟ انه يكون هو التكليف بالمحال وبما لا يطاق وهو لا يقع من الحكيم العليم ، كما أجمع على ذلك علماء الأصول تنزيها لله عن السفه والعبث •

ولو أن الدكتور مصطفى درس القصة والقضية دراسة موضوعية يجمع فيها نصوص القصة من مواطنها الثلاثة فى سورة مريم وآل عمران ، والمائدة يقارن الآيات بعضها ببعض ويفسر بعضها ببعض ويحمل بعضها على بعض لما تسنى له أن يقول ما قال لأنه سيكون مضطراً الى حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورتى آل عمران والمائدة ، لأن ما فيه خفاء ولو عند بعض الناس يحمل على ما فيه وضوح وجلاء عند كل الناس •

ان ايتاء الكتاب وتعليمه والنبوة والرسالة لعيسى ورد ذكره فى ثلاثة مواطن من كتاب الله وسوره فى كلام عيسى فى مهده كبشارة وارهاص وانذار وتبرئة لأمه من تهمة اليهود لها بالفاحشة • والثانى فى كلام الملائكة لأم عيسى وتبشيرها بأنه سيعطى الكتاب والحكمة والنبوة والتوراة والانجيل ، والثالث من كلامه تعالى فى مقام تذكير عيسى بنعمه تعالى عليه وعلى رأسها تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل والآيات البينات حين أرسله الى بنى اسرائيل ، ولا شك أن هذا كله انما كان فى

وجودنا هذا لا في وجود سابق عليه . والا . فهل جعل لوجودنا هذا وجود سابق عليه كأنه بروفة أو نموذج له فكان فيه الأنبياء والمرسلون والكتب السماوية والمعجزات والكفرة والمسلمون والصراعات وسائر مظاهر العمران البشرى ؟! لقد قال الدكتور النمر انه ترف عقلى لا تؤيده الشواهد ولا تعززه الأدلة ، فقال له الدكتور مصطفى ليس ترفا يا سيادة الوزير .. والجواب نعم ليس ترفا ، ولكنه شطح وهوس .

ومن منطلق التفسير الموضوعى .. وجمع الآيات الواردة فى المعنى الواحد والموضوع الواحد لتلقى الأضواء بعضها على بعض نقول لو أن الدكتور مصطفى فعل ذلك فى تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » لما تسنى له أن يقول ان هذا الخلق كان فى وجود قبل هذا الوجود ، فان الآيات الأخرى الواردة فى القرآن فى نفس هذا الموضوع تبين أجلى بيان أن المراد هو هذا الخلق فى هذا الوجود ، فان الله تعالى يخاطب انسان هذا الوجود فيقول له : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » سورة الانفطار . فالشق الأول من الآيات هو الخلق فى أحسن تقويم ، والشق الثانى بعد كلمة « كلا » هو الرد أسفل سافلين ، ثم يقول الله فى موضع ثالث مخاطبا أهل هذا الوجود « الله الذى جعل الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » سورة غافر . فأحسن التصوير وأى صورة ما شاء ركبك وأحسن تقويم كله بمعنى واحد وفى وجود واحد . الهيئة الجميلة والحالة اللطيفة معنوية وحسية التى خلق عليها انسان هذا الوجود من الفطرة البريئة الطاهرة ، وكل مولود يولد على الفطرة والصورة الخلقية الجميلة التى خلق الله عليها الانسان وقال فيها : « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين .. الى أن قال : « ثم كان من الذين

آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » ، سورة البلد . جمال التقويم والصورة والهيئة معنوية وحسية . وفى حالة الرد أسفل سافلين تقول الآيات فى نفس هذه السورة وهذا السياق « الذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب المشئمة عليهم نار مؤصدة » ان الله استثنى فى سورة التين من الرد أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . وقضية هذا الاستثناء انهم من المخلوقين فى أحسن تقويم غير المردودين الى أسفل سافلين وكل ذلك فى هذا الوجود ، فان الله خلق الانسان فى هذا الوجود معززا مكرما وجعل فيه من الطاقات والكمالات والخصائص ما لأجله أسجد له ملائكته وجعله خليفة فى أرضه « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » سورة الاسراء .. وان الله خلق آدم يوم خلقه على هيئته بأن أودع فيه من الكمالات الربانية الشىء الكثير ، وفلاسفة الاسلام يعرفون الحكمة بأنها التشبه بالكمالات الربانية على قدر الطاقة البشرية ، وفى الحديث القدسى جعلت عبادى حنفاء ، ولكن الشياطين اجتالتهم ، فالشق الأول من الحديث هو أحسن تقويم . والشق الثانى هو أسفل سافلين ؛ أحسن التقويم وأحسن التصوير والفطرة السليمة السوية ، ثم الرد أسفل سافلين لمن فسدت فيهم الفطرة وتخطفتهم الشياطين فارتدوا من ملائكية الطاعة الى بهيمية المعصية . كل ذلك فى هذا الوجود .

وأخشى بالنسبة للدكتور مصطفى محمود أن يضمه الرأى العام الى خبراء ماسبيرو الذين يفسرون القرآن بالعلمانية فيدخلون فى معانيه ما ليس منها ويحملون الألفاظ ما لا تطيقه ولا تتحمله ويجرجرون كتاب الله الى مجالات لم ينزل من أجلها ولا يثبت النظر فيها على رأى واحد ، مدعين انه الاعجاز العلمى للقرآن ، أو التفسير العلمى للقرآن ، أو الدلالات العلمية فى آيات القرآن . والله يعلم أنها فوضى التفسير للقرآن .

دكتور عبد الغنى الراجحى

$\frac{1}{3}$ $\frac{2}{3}$ أو

١٦٥٢٩